الخلق اللغوي عند جابر بن حيّان (٢٠٠هـ) قراءة في مستوياته

الباحث كرار عبد الحميد عدنان الموسوي

المفوضية العليا المستقلة للانتخابات

adnankararhamed@gmail.com

أ.د. عادل نذير بيري الحسَّاني

جامعة وارث الأنبياء، كلية العلوم الإسلاميّة

Adil1972@yahoo.com

الملخّص

إن البحث في قضية الخلق اللغوي مهما كان منهجه وغاياته يحيلنا مباشرة على الحديث عن اللغة والفكر، وعلى طرح تساؤلات مبدئية عنها، والأهم من ذلك أنه يحيلنا على الحديث عن "الدماغ" وما له من أثر في عمليات الخلق تلك؛ ولأن هذا الموضوع قد شهد نمواً واسعاً لدى الفلاسفة المسلمين، واستطاعت بعض مقولاتهم أن تزيل الحدود الفاصلة بين الكثير من المعارف والعلوم الإنسانيَّة والعلميَّة؛ فإن هذا البحث سيكون محاولة لسانيّة تستهدف الكشف عن معالم الخلق اللغوي في التربة الفلسفيّة التي نمت فيها البذرة الأولى للبحث الدلالي عند العرب؛ وعند الفيلسوف جابر بن حيَّان على سبيل التحديد والاختيار؛ للوقوف على رؤيته الخاصّة باللغة وعلاقتها بالفكر، والدماغ بصورة عامة، وتعرّف رأيه في مسألة الخلق اللغوي ومستوياته المتعددة ولاسيَّما أن الكشف عن ماهيّة الخلق اللغوي وسبر أغوار حقيقته لا يتأتى إلا بالوقوف على جوهر العلاقة الرابطة بين الدماغ واللغة من جهة، وبين اللغة والفكر من جهة أخرى، وفي ظل فلسفة العلم المعاصر وأبستمولوجيا التصنيف العام القائم على التداخل البيني في البحوث العلمية والإنسانيّة كذلك، وهذا ما سنعرض له بما يأتي:

الكلمات المفتاحيّة: «الخلق اللغوي، الفكر، الدماغ، جابر بن حيّان".

The linguistic creation of Jabir bin Hayyan (٢٠٠ AH)

Dr. Adel Nadhir Berry

Al- University of Heirs of the Prophets, Faculty of Islamic Sciences

Karar Abdul-Hameed Adnan

Independent High Electoral Commission - Karbala Office

Adil١٩٧٢@yahoo.com

Abstract

Researching the issue of linguistic creation, regardless of its method and goals, refers us directly to talking about language and thought, and to asking initial questions about them, and most importantly, it refers us to talking about the "brain" and its impact on those creation processes; And because this topic has witnessed a wide growth among Muslim philosophers, and some of their statements were able to remove the boundaries between a lot of knowledge and the human and scientific sciences; This research will be a linguistic attempt aimed at revealing the features of linguistic creation in the philosophical soil in which the first seed of the semantic research of the Arabs grew; According to the philosopher Jaber bin Hayyan, for specificity and choice; To find out his vision of language and its relationship to thought, and the brain in general, and to know his opinion on the issue of linguistic creation and its multiple levels in particular Especially that revealing the nature of creation,

language, and probing the depths of its reality can only be achieved by identifying the essence of the relationship between the brain and language on the one hand, and between language and thought on the other hand, and in light of the philosophy of contemporary science and the epistemology of the general classification based on the interplay between scientific and human research as well, and this What we will show in the following:

Keywords: "Language creation, thought, brain, Jaber bin Hayyan".

المقدّمة

إننا إذ نبدأ هاهنا لا مناص لنا من أن نشير إلى أن علماء العربية القدماء وإن كانوا قد اهتموا بالمستوى الدلالي وأولوه عناية فائقة؛ ذلك لأن الدلالة تمثُل (حجر الزاوية في بنية اللغة الإنسانية؛ لأنها تعادل القيمة النفعية للغة على مستوييها الإبلاغي والجمالي) (الحمادي:١٥)، وأنَّ الهدف من كل خطاب سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً؛ تحقيق المعرفة وايصال الرسالة اللغوية وفهمها، والمسؤول عن الفهم بالدرجة الأولى هو الدلالة، وإن ما يسبقها من رموز صوتية أو صيغ صرفية وتراكيب نحوية إنما هي بمثابة خدم للدلالة ووسائل للإعراب عنه (حيدر:١٦)، إلا أن دراسة المستوى الدلالي في الثقافة العربيّة لم تكن حكراً على المشتغلين في ميدان الدراسات اللغوية، بل ولم يكن اللغويون في حقيقة الأمر أول السابقين إلى مراتع الدلالة الخصبة؛ ولاسيَّما أن الواقع المعرفيّ يشهد على أن المستوى الدلالي من المستويات اللسانيَّة المشتركة بين اللغة والمنطق والفلسفة، وأن الدلالة تمثّل نقطة تقاطع محورية في علوم مختلفة كاللسانيات والفلسفة، وأن دراستها توزّعت بين حقول معرفيّة مختلفة، إذ اهتمّ بتناولها كلّ قسم من زاويته الخاصة؛ فقد شغل هذا المستوى اللساني (المستوى الدلالي) بالَ الفلاسفة وعلماء الأجناس البشريّة، وعلماء النفس، ومن غير شكّ فقد أفادت اللسانيات كثيراً من جهود هؤلاء العلماء في هذه الحقول الثلاثة()؛ ومن مصاديق ذلك أن الألفاظ لاتصالها الوثيق بالتفكير كما يذكر الدكتور إبراهيم أنيس كانت ولا تزال مجالاً مهمّاً للدراسات الفلسفيّة().

ويثبّت الدكتور عبد السلام المسدّي هذه الفكرة فيشير إلى أن البحث في المستوى الدلالي خلافاً لبقيّة المستويات اللسانيَّة، هو مجال فلسفيّ صرف، وأن الفلاسفة هم أول من تناول المسائل الدلاليّة في مدوناتهم حيث يرى أن الظاهرة اللسانيَّة منذ القدم ما انفكّت تبسط أمام الفكر البشري منذ القديم صنفين من القضايا؛ أحدهما نوعي، والآخر مبدئي عام، فأما الصنف الأول فيمثّل في عناصر اللغة بوصفها نظاماً مخصوصاً له مكوناته ومستوياته «الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والمعجميّة"، وبطبيعة الحال فإن لكل وجه أو مستوى من هذه المستويات مجالاً لسانياً مختصّاً به من فروع الدراسة اللسانيَّة، وهذا الجانب من القضايا نوعيّ؛ ولاسيَّما أنه متعلّق بكل لغة بمعزل عن اللغات الأخرى. وأما الصنف الثاني من القضايا فيتّصل بالمشكلات المبدئية التي يواجهها الناظر في اللغة من حيث هي ظاهرة بشرية مطلقة، ويتدرج البحث في هذه المسائل من تحديد الكلام وضبط خصائصه إلى تحسس نواميسه المحرِّكة له حتى يقارب مشكلات أكثر تجريداً

وأبعد نسبيةً كقضيّة نشأة اللغة وأصلها، وعلاقتها بالفكر، وتفاعلها بالحضارة الإنسانيّة فضلاً عن مشكل الدلالة اللغويّة ذاتها وكيف يحدث إدراك العقل للدلالات اللفظية، وقد أوكل العقل البشري دراسة هذه القضايا إلى الفلاسفة حتَّى عدُّ خوض اللغويين فيها تطرّقاً منهم للماورائيات (المسدي: ١٥ــ ١٦).

ومن ثَّم فإن أكبر الظن أن المقدمات الأسس والكبرى للمستوى الدلالي في النظريّة اللسانيّة عند العرب؛ كانت جزءاً من الإرث الفكري الذي تركه لنا الفلاسفة المسلمون وليس اللغويون، وهذا الاستنتاج يمكن أن نتأكد منه؛ إذا ما عدنا إلى أغلب نصوص الفيلسوف جابر بن حيّان (٢٠٠هـ) ـ الذي يعدّ من الرواد الأوائل في التنظير الفلسفي الإسلامي ـ ولاسيما أن موضوع الخلق اللغوي من حيث الماهيّة والتشكيل؛ كان من أهم القضايا التي تعرض لها بالذكر.

وقد كانت الإشكاليات المتعلّقة بالخلق اللغوي، والأسئلة المحيطة باللغة والفكر والعلاقة الرابطة بينهما أي؛ هل نفكّر باللغة؟ أو أننا نتحدّث عن طريق الفكر؟ وأيهما أسبق اللغة أم الفكر؟ وما موقع الكتابة والدور الذي تلعبه من ذلك؟ واحدةً من أهم القضايا التي ناقشها الفيلسوف جابر بن حيّان الكوفي.

وتأسيساً على ما تمَّ ذكره، سيكون هذا البحث محاولة لسانيّة تستهدف الكشف عن معالم الخلق اللغوي في التربة الفلسفيّة التي نمت فيها البذرة الأولى للبحث الدلالي عند العرب؛ للوقوف على رؤية الفيلسوف جابر بن حيّان الخاصّة باللغة وعلاقتها بالفكر، والدماغ بصورة عامة، وتعرّف رأيه في مسألة الخلق اللغوي ومستوياته المتعددة منها خاصة؛ ولاسيَّما أن الكشف عن ماهيّة الخلق اللغة وسبر أغوار حقيقته لا يتأتى إلا بالوقوف على جوهر العلاقة الرابطة بين الدماغ واللغوي من جهة، وبين اللغة والفكر من جهة أخرى، وفي ظل فلسفة العلم المعاصر وأبستمولوجيا التصنيف العام القائم على التداخل البيني في البحوث العلمية والإنسانيّة كذلك، وهذا ما سنعرض له في ما يأتي:

المحور الأول:

الخلق اللغوي والدماغ

إن اعمال الفكر والتأمل في عمليات الخلق اللغوي، لا يمكنه أن يمرَّ من دون ذكر أو حديث عن الدماغ وأقسامه؛ ولاسيّما أن الدماغ أساس وجود اللغة، فنحن نمتلك اللغة؛ لأن لنا دماغ تفعل ذلك (أحمد: ١٤٤)،وأن الدماغ كما يوضّح روبرت أوينز ((هو العضو الأساسي الوحيد في جسم الإنسان الذي يهتم بكل ما يتعلّق بشأن العمليّة اللغوية)) (محمد: ٤٠).

ونتيجة طبيعية لذلك فقد سعى الفيلسوف جابر بن حيّان في أكثر من موضع إلى تقديم ما يراه ضرورياً من مفاهيم؛ لبناء رؤيته الفلسفيّة القائمة على أسس معرفيّة/ تنظيريّة/ ، وأخرى طبّيّة / تشريحيّة/ ولكي يستثمرها في الحديث عن الدور الأساس الذي يؤديه الدماغ وأقسامه، للجسم بصورة عامّة، وللخلق اللغوي الإنساني منه خاصة؛ ففي مقالة له جاءت موسومة بـ

"القول في التشريح" يقول: ((الدماغ ينقسم ثلاثة أقسام؛ الأول المسامت للوجه، ويقال له: بيت الخيال، والأوسط وهو الدماغ، يقال له: بيت الذكر، والثالث في مؤخرة الدماغ، ويقال له: بيت الفكر، وأي هذه فسد، فسد ذلك الشيء المحدود به حتى يفسد الخيال والفكر والذكر، فاعلم ذلك) (كراوس: ٥٦).

وقال في موضع آخر وتحديداً في كتابه الموسوم «بالحجر» ما نصّه: ((أمَّا تسميتنا له بالدماغ في كتاب الصمغ الأحمر وغيره من كتبنا الذي سميناه فيها بذلك؛ فلأن الدماغ إليه يجتمع الرأي وفيه البيوت الثلاثة الجامعة للذكر والخيال والفكر، التي هي فضيلة الإنسان وقوى نفسه الناطقة)) (المزيدي:١٠٠)، وهكذا فإن الفيلسوف جابر بن حيّان ومن خلال هذين النصّين ينطلق من فكرة رئيسة مفادها أن للخلق اللغوي مراكزَ محددة في دماغ الإنسان، وأننا نتكلم بفضل ما في أدمغتنا من قوى وبيوت (قدرات) فطريّة.

وابن حيَّان في ذلك إنما يشير إلى غاية ما تركّز عليه الدراسات اللسانيّة، والعصبيّة منها على وجه التحديد؛ ولاسيَّما أن الدماغ كما هو ثابت في الدراسات المعاصرة؛ هو مركز اللغة، وأن المنطقة اليسرى منه بالذات هي المسؤولة عن اللغة، ومن أهم الدراسات التي تجري الآن كما يذكر بعض الدارسين هي ما يقوم به أطباء الأعصاب، والدماغ، بالتعاون مع علماء اللغة؛ للتعرّف على طبيعة اللغة وتعقيداتها المختلفة من ناحية، ولمحاولة تحديد أدق لتلك المناطق من الدماغ التي يمكن أن تكون متخصصة أو مسؤولة عن مهارات لغويّة معيَّنة هذا من جهة (خرما: ٢٠).

ومن جهة أخرى فإنه إذا كانت اللسانيّات العصبيّة تشير في أحد مبادئها الأسس إلى أن الضرر الذي يصيب منطقة ما من مناطق الدماغ يؤدي إلى إصابة القدرة اللغوية الكامنة فيها، كما يؤكد الدكتور ميشال زكريا في معرض حديثه عن اللسانيات العصبيّة حين قال: ((يتناول هذا المبحث (العصب الألسني) الارتباطات المتبادلة بين التصنيف التشريحي العيادي والتصنيف الألسني للحالات المرضيّة، وتبدو هذه الارتباطات المتبادلة على درجة كبيرة من الأهميّة في ما يتعلّق بتحليل الاضطرابات اللغوية بصورة خاصّة، وبتحليل اللغة بصورة عامّة) (زكريا: ٧٠).

فإن جابر بن حيّان سبق إن أشار إلى أن الفساد الذي يصيب العناصر اللغوية، إنما هو نتيجة طبيعيّة للفساد الذي تتعرض له المناطق المسؤولة عنها في الدماغ وكان ذلك في قوله في النص المذكور في أعلاه أي: (وأي هذه (أقسام الدماغ الثلاثة) فسد، فسد ذلك الشيء المحدود به حتى يفسد الخيال والفكر والذكر، فاعلم ذلك.

وابن حيَّان في هذه النقطة تحديداً، لا ينطلق من أرض لسانيّة مجهولة، وإنَّما ينطلق من نصوص أستاذه وشيخه الإمام جعفر الصادق عليه السلام التي تشير إلى أن العملية اللغويّة ابتداء من حروف المعجم وفصاحة نطقها قد تتأثر في الغالب نتيجة لتعرض الإنسان إلى إصابة في رأسه، وبيان

ذلك نجده في قوله: ((إن الرجل إذا ضُرِب على رأسه بعصا أو سواها فزعم أنه لا يفصح بعض الكلام فالحكم فيه أن يعرض عليه حروف المعجم ثم يعطى من الدية بقدر ما لم يفصح (معاني الأخبار: ١/ ٤٣).

هذا ولأن النظريات المعرفيَّة بصورة عامّة، واللسانيَّة منها في المقام الأول عادة ما تبدأ بفكرة أوليّة، ثم تتطوّر إلى رأي، ثم إلى نظرة ثم إلى نظرية، ثم إلى قانون ، فإن أوليّة ابن حيّان وريادته في الإشارة إلى بعض المبادئ المهمّة التي ركزت عليها اللسانيات العصبيّة المعاصرة؛ لا تمنعنا من القول بأن ما ذكره صلاح الدين بن إيبك الصفدي هو بمنزلة تفصيل وتكثيف لكل الآراء التي قدمها ابن حيّان بهذا الصدد، يقول الصفدي: ((قد تبيّن في علم التشريح أن الدماغ مُنقَسِم على ثلاثة أقسام؛ قسم يخصُّ الحس المشترك، والخيال، وقسم يخصُّ الوهم والفكر، وقسم يخصُّ الحفظ والذاكرة،... والدليل على أن هذه القوة مراكزها من الدماغ ما ذُكر؛ هو أن الإنسان إذا حصلت فيه آفة من جراحة، أو غيرها في أحد الأمكنة المذكورة؛ فسد ما في ذلك المكان من القوة؛ لأنه إن حصلت الآفة في مقدم دماغه فسد تخيّله، وإن حصلت في الوسط فسد فكره، وإن حصلت في المؤخرة فسدت حافظته؛ فتبارك الله الخالق البارئ المصوّر جلّت قدره، وعظمت حكمته)) (الصفدي: ٥٨ ــ ٦٠).

ومن ثمَّ فإن ما ذكره جابر بن حيّان، وما بيَّنه الصفدي عن الدماغ واحتوائه القوى الإنسانيّة الناطقة ينمُّ عن تفكيرٍ لسانيّ ذي تصوّر نظري، وإجرائي متماسكين؛ ذلك أن الخوض في هذه المسألة ليس ترفاً فكرياً أو تدويناً هامشياً _كما يبدو من أول وهلة بل أن هناك صلات وثيقة ومركزية بين الخلق اللغوي والدماغ حاول ابن حيّان أولاً الكشف عن شيء من معالمها وما تقوم عليه، وعن طريق تصوّر الطاقات التي تنماز بها تلك العلاقة، والاحاطة بطبيعة ما تحمله أقسام الدماغ من خصائص نطقية وفسيولوجية «ظاهرة أو كامنة» قدر المستطاع إذ لا يمكن تصورها تفصيلياً في حدود الزمن الذي عاش فيه؛ لأن ذلك أمرٌ يُكشَف عنه في ضوء تراكم المعرفة الإنسانية والتجارب والإمكانات المختبرية، وإن كان تصوّر ذلك ممكناً إجمالياً في إطار الاستضاءة الفلسفية والطبيّة التي انماز بها جابر عن معاصريه.

المحور الثاني

الخلق اللغوي والفكر

إن اللغة كما يرى تشومسكي واحدة من الخصائص والفصول المقصورة على النوع الإنساني في مكوناتها الأساسيّة؛ فهي جزء من الإعداد الإحيائي المشترك الذي لا يختلف فيه أعضاء النوع الإنساني إلا من أصيب بعيب عضوي شديد، ويضيف أن اللغة تدخل بطريقة جوهريّة في الفكر والفعل والعلاقات الاجتماعيّة (قبلان: ١٤).

وقد ذهب بعض الباحثين في وصفهم للغة إلى أنها نظام، أو مجموعة من الإشارات لإيصال الأفكار، باستدعاء صور لمفاهيم الأشياء التي تكوّنت في أذهاننا إلى أذهان الآخرين؛ ومن ثمَّ فهناك علاقة وثيقة بين اللغة والفكر، وليس هناك لغة من دون فكر، ولا فكر من دون لغة (النجار: ٢١)، إذ ((إن اللغة عبارة عن مجموعة من

الأشكال الفكرية، أو الاتجاهات الفكريّة، يرتبط بعضها ببعض؛ لتكون نظاماً تاماً مغلقاً، وهذا النظام يتكوّن من أنظمة ذات مستويات مختلفة، ويتداخل بعضها، وينتمي بعضها لبعض، كانتماء الجزء للكل، أو الفرع للأصل) (المهيري: ٥٧).

وعليه فلمَّا كانت حركة التفكير في الإنسان ذات ارتباط وثيق باللغة، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفكّر إلا إذا صاغ عناصر فكره في قوالب لغوية، وترجمها إلى رموز لغوية؛ لأن الفكر ليس سوى لغة داخليّة، تحتاج دائماً إلى أن يتمَّ توصيلها إلى الآخرين ممَّن لديهم اللغة نفسها وبوساطة اللغة الخارجيّة المتمثلة بالرموز الصوتيّة (شاهين: ٩٦ ــ ٩٧)؛ فقد شغلت مسألة «الخلق اللغوي والفكر» جلَّ المباحث الفلسفيَّة، والمنطقيّة واللسانيّة، وأصبح البحث في العلاقة الرابطة بين الخلق اللغوي بشقَّيه المنطوق به والمكتوب وبين الفكرة التي ما زالت هائمة في النفس البشرية؛ هدفاً توجَّهت إليه الفتوحات المعرفيّة المختلفة في محاولة منها للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالكيفيّة التي يمكن من خلالها تصور علاقة اللغة بالفكر؛ فهل الفكر مستقل عن اللغة وسابق عنها، أم أن اللغة والفكر متصلان؟ وكيف يعتمد أحدهما على الآخر؟.

هذه الأسئلة وعشرات غيرها شغلت بال المفكّرين، والفلاسفة، واللغويين، فكان أن قدَّموا حولها الكثير من الآراء والنظريات، سعياً منهم لتفسير تلك الصلة بين «اللغة، والفكر»، ويمكن إجمال النظريات والآراء في أربعة اتجاهات وهي كالآتي (سيكولوجية اللغة: ١٥٠):

الاتجاه الأول: يقول أصحابه بالربط الوثيق بين اللغة والفكر؛ وأن اللغة لديهم هي المظهر الخارجي الذي يقدّم الفكر من خلاله، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن التفكير يؤثر في اللغة من حيث هو سابق عليها، ويفسّر بعضهم تقدّم الفكر على اللغة وصدارته عليها بتقدّم الرتبة أو الحيثية، لا تقدّم الزمان أو الوجود في الأعيان ويؤكد تلك الصدارة بقدرة الإنسان على التعبير عمَّا في نفسه بلغات متعددة غير لغة الكلام (الفخراني: ٢٦ ــ ٣٢).

الاتجاه الثاني: ويؤمن أصحابه بالربط بين اللغة والفكر، ويعتقدون أن اللغة أكثر تأثيراً في التفكير؛ ولاسيّما لدى الجماعات؛ إذ إن النسق اللغوي ليس أداة لإعادة انتاج الأفكار المنطوق بها، وإنما هو المشكّل للأفكار، وهو الموجه والمبرمج والموجّه للنشاط العقلي للفرد.

الاتجاه الثالث: وقد مزج أصحابه بين اللغة والفكر مزجاً تامّاً ووحد بينهما؛ إذ إن التفكير لديهم عبارة عن تناول الكلمات في الذهن، أو هو عبارة عن عادات حركيّة في الحنجرة، أو هو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصوتيّة لأعضاء الكلام، أي التفكير كلام ضمني، وأننا عندما نفكّر نتكلّم فعلاً على الرغم من أن الكلام في هذه الحالة لا يكون مسموعاً (غنيم م/ ٢، ع/ ١: ١١٠).

الاتجاه الرابع: ويذهب أصحابه إلى الفصل بين اللغة والتفكير، ويرى بعضهم أن الكلام الإنساني تعبيرٌ خارجيّ للفكرة، أو هو ثوب لها، ويذهب بعضهم الآخر إلى أن التفكير محرر من كل المكونات الحسية بما فيها الكلمات، ويتصورون العلاقة بين الفكرة والكلمة علاقة خارجية بحته، ولذا يدرسون خصائص التفكير على نحو مستقل، ثم خصائص الكلام معزولاً عن التفكير، ثم يتصوّرون

وجود علاقة بين هذا وذاك على أنها ارتباط آلي خارجي بين عمليتين مختلفتين.

ويطول بنا المقال بما لا يسمح به المقام في إذا أردنا مناقشة تلك النظريات وما تستندُ عليه من أفكار وتصوّرات؛ لأن هذا الموضوع يتطلّب مزيداً من العناية والشرح والاهتمام؛ ((فقد جذب هذا الموضوع كثيراً من العلماء في القديم والحديث إلى الوقوف أمامه، ومحاولة التعرّف على صلة اللغة بالفكر،... وهو موضوع لمّا يفرغ المحدثون من الخوض فيه إلى الآن)) (الصفاء:٢١)، وأن ما يهمنا في الأساس هو أن نبرز رؤى الفلاسفة المسلمين حول تلك الصلة؛ ورؤية الفيلسوف جابر بن حيّان منها في المقام الأول.

لقد شغلت هذه القضيّة اهتمام الفلاسفة المسلمين، بل لقيت رواجاً واسعاً في الأروقة الفلسفيّة؛ ولاسيَّما أن علاقة الخلق اللغوي بالفكر مبحثٌ فلسفيّ قديم كثرت فيه الأفكار والتصوّرات ، وربَّما يكون جابر بن حيّان أسبق فلاسفة الإسلام بحثاً وتناولاً للغة وصلتها بالفكر الإنساني، حين قال: ((إن الأشياء كلها تقال على أربعة أوجه؛ الأول منها أعيان الأمور وذواتها وحقائقها، كالحرارة في ذاتها، والبرودة في ذاتها، وإن كانا غير موجودين لنا، ثم تصور ذلك بالعقل، وهل له حقيقة أم لا، كالواجب والسالب، والصدق والكذب، ثم النطق بها، وذلك بتقطيع الحروف،... وغير ذلك، وكتابتها وهو تمثيل الخطوط وإخراج ذلك من القوة إلى الفعل)) (كراوس: ١٤٠ ـ ١٤١).

ويقول في موضع آخر: ((الكتابة دالة على ما في اللفظ المنطوق، واللفظ دال على ما في الفكر، وما في الفكر دال على ماهية الأشياء)) (بول كراوس : ١٣٤).

يبدو واضحاً من خلال هذين النَّصَّين أن جابر بن حيّان يشير إلى أن هناك علاقة بين بنية اللغة، وبنية العقل، وبنية الواقع، وواضح أيضاً إدراكه لأهميّة اللغة في إبداع النظام التواصلي؛ إذ إن الإنسان يكيّف تعامله مع الواقع الخارجي من خلال قدراته العقلية التي تسمح له بابتكار النمط التر ميزي الدال وفق التصوّر الحسِّي؛ ولاسيَّما أن حدَّ العقل لديه دال على ((الجوهر البسيط القابل لصور الأشياء ذوات الصور والمعاني على حقائقها)) (الأعسم: ١٧٧).

ومن ثمَّ فإن مستويات الخلق اللغوي لدى جابر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر، وأنها في رأيه منظومة تراتبيّة تعمل على وفق مراحل متسلسلة بعضها داخلي يحدث في أدمغة البشر التي تكون مجهَّزة لهذه الوظيفة (كما ذكرنا في المحور السابق)، وبعضها خارجي (تصويتي، تصويري)؛ وأنها بالمجمل تتألف من أربعة مستويات أساسيّة هي :

١. المستوى الأولى؛ الوجود في الأعيان، أو الوجود الخارجي للشيء، وبعبارة أخرى الوجود المرئي الملموس أو المحسوس له في الواقع.
٢. المستوى الثاني: الوجود في الأذهان، أي ماهيَّة الشيء، أو وجود صورة للشيء المتحدث عنه في الذهن.
٣. المستوى الثالث: الوجود في الألفاظ، أي وجود أصوات اللغويَّة التي تدلُّ على صورة الكلمة الذهنيّة، واستدعائها.

٤. المستوى الرابع: الوجود في الكتابة، وهو في الحقيقة وجود آخر للوجود اللفظي (التصويتي)؛ إذ انه التصوير الشكلي والخطّي للألفاظ المنطوقة.

وبإن هذه المستويات الأربعة الخاصّة بالخلق اللغوي، التي تحدّث عنها الفيلسوف جابر بن حيّان تجعل من الوجود العيني/ الواقع الخارجي مبتدأ الإدراك؛ لأن الوجود الذهني/ الصورة الذهنيَّة/ لا يمكن أن تكون من غير مصدر خارجي، وأنها نتيجة لإعمال الفكر مع الانطباعات، أو التأثيرات الحسّيّة، وإن الصور الحاصلة في الأذهان وفقاً لهذه التراتبيّة في مستويات الخلق اللغوي ليست إلا محصَّلة لعملية إدراك الاقع الخارجي، وبطبيعة الحال فإن العلامات اللغوية (الألفاظ) ليست إلا عبارة عن هذه الصور الذهنيّة المدركة، ومن هنا تتساوى العلامات المنطوقة بالعلامات أو الرموز المكتوبة، وبعبارة لسانيَّة أخرى فإن الألفاظ تتحول في الذهن إلى مجموعة من الصور والمفاهيم، أي من وجود عينيّ محسوس إلى وجود ذهنيّ متخيَّل، ثمَّ تتحول من هذا الوجود ذهنيَّ متخيَّل إلى معانٍ صوتيّة، وإلى رموز كتابيَّة؛ إذ أن النشاط اللغوي الذي يجسد الفكر أو لنقل الصورة الذهنيّة؛ يتَّخذ مظهرين لتحقيق ذلك؛ الأول فسيولوجي ويتمثل بالعملية النطقية التي يقوم بها المتكلم (تقطيع الأصوات ونظمها)، والثاني شَكلي يتوسل من خلاله الإنسان إلى تثبيت ونقل ما ينطق؛ فالكتابة صورة رمزيَّة دالة على اللفظ، كما أن اللفظ صورة صوتيّة دالة على الفكر (دفّة ٢٠٠٣: ٧٥).

والجدير بالذكر أن ما قدّمه جابر بن حيّان في توضيح وتثبيت مراتب ومستويات الخلق اللغوي وبحسب التسلسل الذي بيّناه أصبح نقطة مضيئة للأجيال الفلسفيّة واللغوية والبلاغية، بل أنه صار منهجاً متداولاً وراسخاً بين الدارسين ومصداق ذلك ما نجده عند الفيلسوف ابن سينا الذي يقول «في معرفة التناسب بين الأمور والتصورات والألفاظ والكتابات، وتعرف المفرد والمركّب في ما يحتملها من ذلك»: ((للأمور وجود في الأعيان ووجود في النفس يكوّن آثاراً في النفس؛ ولمّا كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك؛ فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً، ليدل بها على ما في النفس من أثر، ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان أو من المستقبلين إعلاماً بتدوين ما علم؛ فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق، فاخترعت أشكال الكتابة)) (العبارة من الشفاء: ٦).

وبهذا الصدد يقرر الدكتور فايز الداية (الداية: ١٥ــ ١٦) أن هذا التحليل الفلسفي للتصوّر والذاكرة ودورهما في العملية اللغويّة والاتصال قد انتشر في أوساط الدارسين والفقهاء وعلماء الأصول والاجتماع؛ فالغزالي (٥٠٥هـ) الذي يتملّك ناصية اللغة والفلسفة أدوات في بحوثه ومدوناته لم تمنعه الحملة التي حملها على الفلاسفة المسلمين من تداول أفكارهم، وتقسيماتهم الدلاليّة؛ ولاسيَّما أنه يفرد بحثاً في كتابه «معيار العلم» لبيان رتبة الألفاظ من مراتب الوجود يقول فيه: ((اعلم أن المراتب فيما نقصد أربع، واللف في الرتبة

الثالثة، فإن للشيء وجوداً في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والـذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان)) (الطوسي: ٧٥).

ويـتردد صدى ذلك عند ابن خلدون (٨٠٨هـ) وبالمعنى الذي يدلُّ على رسوخ ذلك التحليل الفلسفي وتداوله بين مشرق الأمة العربية ومغربها، إذ يقول : ((ثـم من دون هذا الامـر الأمـر الصناعي الـذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلّم، وهي معرفة الألفاظ، ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب، ومشافهة اللسان بالخطاب، فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكرة في مطلوبك؛ فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفّها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق) (المقدمة: ٥٠٤).

وفي ختام هذا البحث يمكننا القول

- إن جابر بن حيّان وفي المرحلة المبكرة من مراحل الفكر العربي والإسلامي بصورة عامة، استطاع أن يدرك أهمّية «الدماغ» وأقسامه الثلاثة في عمليات الكلام والخلق اللغوي بصورة عامَّة، والتحكّم بآلياته المتعددة، فكان أن أشار إلى تموضع النظام اللغوي في مناطق متفرّقة من الدماغ الإنساني.
- إن الخلق اللغوي في رأي جابر بن حيّان ـ وبعض الفلاسفة والأصوليين ممن سار على منهجه ـ؛ من الناحية المبدئية مرحلة تالية للفكر؛ فكثيراً ما تنبثق الفكرة في أذهاننا ونبقى نبحث عن المسمَّيات والعبارات التي تؤديها، وأن ابن حيّان يقيم العلاقة بين الدلالات الصوتيّة، والأشكال الكتابيَّة(الرموز) على أساس من الترابط الدلالي، حيث تجسد الرموز الكتابيّة هيئات الألفاظ في الأفهام، فإذا قامت هيئات الألفاظ في الافهام تطلب الصورة الذهنية، وبطبيعة الحال فإن الصورة الذهنيّة تشير هي الأخرى إلى الموجودات العينية (الخارجيّة)، وهكذا نجد العلاقات الدلاليّة قائمة على الترابط الدلالي بين كل طرفين، ويمكن تمثيل تلك العلاقات الدلاليّة على النحو الآتي (دفة: ٧٥):

١. الهيئاتالشكليَّةالكتابةدالا– لصورةالنطقيَّة للألفاظ مدلول.
٢. الصورة النطقيَّة للألفاظ دال– الصورة الذهنيّة مدلول.
٣. الصورة الذهنيّة دال–الأعيان المدركة مدلول.

إن مفهوم الخلق اللغوي لدى جابر بن حيَّان ـ ولدى من يسايره ـ يجمع بين النظامين؛ النظام النطقي/

فعل التصويت والتقطيع/ ، والنظام التصويري / فعل الخط والكتابة/ ، وإن كليهما لديه معادل ترميزي يدلُّ على الأشياء الموجودة في الذهن؛ ((فاللسان يصنع في جويّة الفم وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه وفي لهاته، وباطن أسنانه، مثل ما يصنع القلم في المداد والليقة والقرطاس، وكلّها صور وعلامات وخلق مواثل، ودلائل) (الجاحظ: ١/ ٥٠) .

ومعنى ذلك فإن التصويت الإنساني يساوي في دلالته على المعاني فعل الخط والكتابة التي تخرجها (المعاني) من القوة إلى الفعل، ويبدو لنا أن رأي ابن حيان وفقاً لهذه القراءة يعدُّ رأياً ناضجاً وأكثر واقعية من غيره؛ ولاسيَّما ابن جني الذي حصر اللغة في منطقة «الأصوات» التي يعبّر بها عن الأغراض الإنسانيّة، وسو سير الذي يذهب إلى التمييز بين نظامين متباينين من أنظمة الدلالة «التصويت، الكتابة»، ويرى أن الكتابة صورة زائفة ومخادعة للصوت اللغوي حيث يقول: ((الكتابة تقيم بيننا وبين اللغة حجاباً يمنعنا من رؤيتها كما هي؛ وذلك أن الكتابة ليست ثوباً عاديَّاً تلبسه اللغة؛ بل هي قناع خدَّاع تتنكَّر فيه)) (القرمادي،: ٤٩)().

المصادر والمراجع

١.أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الدكتور نايف خرما، سلسلة عالم الفكر، الكويت ط٢، ١٩٧٩م.

٢.الألسنية علم اللغة الحديث (المبادئ والأعلام)، الدكتور ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٤م.

٣.أهم المدارس اللسانيّة، عبد القادر المهيري وآخرون، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس مارس١٩٨٦ م.

٤.البحث الدلالي عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات، أطروحة، جلال عبد الله محمد سيف الحمادي، مركز اللغات، وحدة اللغة العربية، جامعة تعز، الجمهورية اليمنيَّة، ٢٠١٠ م.

٥.البحث اللغوي عند إخوان الصفاء، د. أبو السعود أحمد الفخراني، مطبعة الأمانة مصر، ط١، ١٩٩١م.

٦.التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدكتور عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب الطبعة الثانية، ١٩٨٦ م.

٧.الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٦٥م.

٨.الخطاب اللغوي لدى مرضى الحبسات الكلاميّة «دراسة وصفية تحليليّة» (اطروحة) منى حسين جميل محمد، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م.

٩.دروس في الألسنيّة العامَّة، سوسير، تعريب: صالح

القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٥ م.

١٠. دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.

١١. دلالة اللواصق التصريفيّة في اللغة العربية، أشواق محمد النجار، دار دجلة، عمان، ط ١، ٢٠٠٦ م.

١٢. رسائل جابر بن حيّان، ثلاثون كتاباً ورسالةً في الكيمياء والأكسير والفلك والطبيعة، والهيئة، والفلسفة، والمنطق، والسياسة، اعداد وتحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٦ م.

١٣. سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، تحرير الدكتور جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، ط١، ١٩٧٠م.

١٤. الشفاء ابن سينا، تحقيق: أبو العلا عفيفي، مراجعة: إبراهيم مدكور، المطبعة الإميرية بالقاهرة، ١٩٥٦.

١٥. علم الدلالة إطار جديد، ف، ر، بالمر، ترجمة الدكتور صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعيّة، ط١ ، ١٩٩٥م.

١٦. علم الدلالة دراسة نظرية تطبيقيّة، الدكتور فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط ١، ٢٠١٠م.

١٧. علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، الدكتور فايز الداية، دار الفكر لمعاصر، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٦م.

١٨. علم السيمياء في التراث العربي، د. بلقاسم دفّة (بحث) منشور في مجلة التراث العربي، ع/ ٩١، أيلول ٢٠٠٣م.

١٩. في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الساسة، ١٩٩٣ م.

٢٠. الكشف والتنبيه عن الوصف والتشبيه، صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي، تحقيق، هلال ناجل، وليد بن أحمد الحسين، سلسلة اصدارات الحكمة، لندن، ط١٩٩٩،١م.

٢١. اللسانيّات العصبية، اللغة في الدماغ «رمزية، عصبية، عرفانيّة، د. عطية سليمان أحمد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط ١، ٢٠١٩ م.

٢٢. اللغة والفكر عند الطفل، د. سيد غنيم (بحث) منشور في مجلة عالم الفكر م/ ٢، ع/ ١ ابريل ١٩٧١م.

٢٣. اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات مانجوا ، نعوم تشومسكي، ترجمة د. حمزة بن قبلان، الدار البيضاء دار توبقال، ط ١، ١٩٩٠م.

٢٤. مختار رسائل جابر بن حيّان، عنى بتصحيحها ونشرها بول كراوس، مطبعة الخانجي ١٣٥٤هـ.

٢٥. المصطلح الفلسفي عند العرب، الدكتور عبد الأمير الأعسم، منشورات مكتبة الفكر العربي، ط١، ١٩٨٥م.

٢٦. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، عني بتصحيحه علي أكبر الغفاري، انتشارات اسلامي، قم المقدسة، ١٣٦١ هـ.

٢٧. معيار العلم في المنطق، أبو حامد الغزالي، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠١٣م

٢٨. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الأشبيلي، دار القلم، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٢م.